

# لقطات من تاريخ تازة

بقلم : محمد العلوي الباهي .

سعيد أيها الجمهور الكريم بالتقائي بكم شكرا المجلس العلمي المحلي بتازة الذي أتاح لي هذه الفرصة بدعوتي للمشاركة في أنشطته الثقافية . و ذلك بإلقاء هذه المحاضرة تحت عنوان : " لقطات من تاريخ تازة . "

و بما أن العرض الذي سأقدمه هو بالدرجة الأولى ثقافي معرفي و سياحي أدبي .. فإن مهمتي تكون  
و بالضرورة الإشادة بهذه المدينة مع إبراز خصائصها المتميزة و محاسنها التاريخية و الجغرافية و السياسية  
و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و ذلك عبر أزمعتها المتعاقبة و أمكنتها المتنوعة . نعمل إذاً على إبراز مكانة المنطقة قصد جعلها  
داخل الإطار الملائم للتنمية المستدامة و العناية المبركة . و بما أن مساحة القول ستطول مع وفرة المعطيات فإني سأختصر الكلام كثيراً و لا  
أختزله اختزالاً لأني فقط بالحيز المخصص للمحاضرة .

منذ فجر التاريخ سكنه الإنسان الأول شمال إفريقيا و جاب طريقها من الشرق إلى الغرب عبر مضيق تازة حيث تلتقي سلسلة جبال الأطلس  
بسلسلة جبال الريف . من هنا أخذت تازة أهميتها التاريخية مبكراً ، فكانت المعبى البري الإجباري الوحيد لتحركات كبار القادة و الملوك و لا  
زال هو الطريق الوطني البري الرئيسي عبر بلدان المغرب العربي .

بداية تنفق على أننا سنزور من خلال هذا العرض مدينة تازة الأثرية و ربما الأسطورية في بعض جوانبها .. تعبد بكاملها متحفا مفتوحا في  
الهواء الطلق قابلا للزيارة من أعلى فضاءاته أو من خلال أطلاله و ثناياه  
أو من خلال أركيولوجيا و خباياه .

بالمتحف هذا تجد القصور و الدور و المدارس و المساجد و الفنادق و الأسواق و الحانات و الحمامات  
و أضرحة العلماء و مشاهد الصلحاء و الكتب المخطوطة و الثريا العظيمة و المنبر الفريد ، و معامل الصابون المعطلة و دور الرياضة و  
معاصر الزيتون ، و المطاحن المائية و المصانع الخزفية و الدروب الضيقة  
و الأسوار و الأبراج و الحصون و الصخور الهائلة و الكهوف العميقة و الخنادق المائية و المدافع المظمورة  
و التدميمات الدفاعية القوية المزودة بالحيطة و قناطر الأسمنت الجيرية .

فقد من عبدها قديما القائد القرطاجني هنببال بأفباله الضخمة قاصدا مخزو روما عبر مضيقي تازة البري و طنجة البحري ثم إسبانيا و بلاد  
الغال و جبال الألب .

و اتخذها كل من عقبة بن نافع و موسى بن نصير رباط جهاد .. و لما قصدها عبد الرحمن الداخل لم تعره أي اهتمام فرحل إلى  
الأندلس و أسس ملكا زاهرا هناك الشيء الذي جعلها تبايع لأول مرة إدريس الأزهري

و تتصاهر معه بتزويجه بكنزة الأوبية التازية .. و كان مع حفدة هذه الأميرة داود ابنه إدريس الثاني الذي تولى ولاية تازة الشاسعة آنذاك ..  
فهو الذي خطط لإقامة السوق التجاري وسط المدينة مع جامعها هناك

في العهد المرابطي نرى الاهتمام ينصب على الجانب الشرقي من المدينة و تصميم أزقتها . و مع قيام الدولة الموحدية نرى المؤسس  
الفعلي لهذه الدولة : الخليفة عبد المومن بن علي الكومي يعتني بتازة أولا و لأهميتها الاستراتيجية يجعل منها مؤسسة عسكرية باهتياز ..  
تتخللها التجهيزات البنائية المعمارية الأساسية مع تسوير مزدوج و أبواب متعددة و مختلفة و خنادق و أبراج و مداخل سرية و أنفاق.

و بحلول العهد المريني ستشهد مدينة تازة توسعا عمريا هائلا و حركة فكرية و ثقافية بلغت أوجها في هذا العصر . فقد شهدت بها ثلاث  
مدراس علمية تخرج منها علماء أجلاء . كما تم توسيع الجامع الكبير الذي أصبح يتوفر على تسعة أبواب لاستقبال المصلين مع كل  
الأعياء المجاورة له و قد تم تجهيزه بشرا إضاءة كبيرة .  
و بخزانة علمية زاخرة بالخطوط النفيسة و بمنبر جميل و فريد كما سبقت الإشارة .

وعلى العهد السعدي إذا كانت الثغور الساحلية تتعاون فيما بينها لحماية أرض الوطى مع أطماع الدول الأوبية الاستعمارية فإن مدينة  
تازة انطلعت بمهمة حماية المنفذ البري الوحيد لدخول المغرب مع جبهة الشرقية و قد تمكك الأتراك مع السيطرة على العالم العربي ،  
إلا المغرب الذي امتنع عليهم بفضل (عشق الزجاجة) هذا . أي مضيق تازة حيث بنى أحمد المنصور الذهبي السعدي حصنه البستيون  
الشاهق لمراقبة طريق الشرق و منع أي تسرب كان .

و على العهد العلوي فقد انطلق المولى الرشيد مع مدينة تازة يوحد المغرب بعد أن كان موزعا إلى مناطق متناحرة ففضى بتازة على  
الطاحية ابنه مشعل بمساعدة من طلبة مدرسة الشيخ اللواتي .

و قد نظم المولى الرشيد آنذاك بتازة حفلا تكريميا لهؤلاء الطلبة ممن سنويا على أكبر مدارس المغرب و منه انبثق احتفال سلطات الطلبة  
الذي كان إلى عهدنا بالقرويين بفاس و كان كذلك بمراكش بجامعة ابن يوسف .

و بتازة استقبال المولى الرشيد التاجر فريحيس كأول ديبلوماسي أجنبي .. و بعد هذا أول استقبال في مراسيم بونوكول الدولة العلوية .

لما قرر محمد بن عبد الكريم الخطابي توسيع نطاق عملياته مع محاربة الإسبان إلى محاربة الفرنسيين كذلك ، و قد فكر في أن يدخل إلى مدينة  
تازة ليتملك مع المحاربة الشاملة للاستعمار و تحرير المغرب العربي بكامله انطلاقا مع المضيق الاستراتيجي تازة . عندها فقط نهضت له كل  
مع فرنسا و إسبانيا بكل قواهما لتطويقه ،

و لما طوق كان اختياره النهائي أن يدخل تازة فوق صهوة جواده كبطل و قائد مجاهد و لو مستسلما

و يقضي نهاية فترة نفيه بلجونه إلى مصر و منها إلى جانب مناضليه مغاربة آخرين يبعث بالسلاح إلى جيش التحرير الذي تكون مجددا  
بجبال شمال تازة . و يبلي المجاهدون البلاء الحس في تحرير البلاد مع الاستعمار و رجوع محمد الخامس مع منفاه .

و على عهد الحسن الثاني (رحم الله الجميع) عادت الصحراء المغربية إلى حاضرة الوطى بفضل المسيرة الخضراء ، هذه المسيرة التي كان في طليعتها متطوعو إقليم تازة و هم الذين تعبوا لتمهيد و تسوية مطار الداخلة هناك لاستقبال الطائرات الممولة للمسيرة هذا شيء من الجانب التاريخي ، أما الأثر في فيتارة يوجد بجامعة الكبير أكبر ثريا في العالم مصنوعة من النحاس . صنعت في المسجد لتضيقه بكتلة من نور تبعث من 514 سراج وهاج . وزنها 32 قنطارا . نقش على بنها آيات بينات من الذكر الحكيم ، و كذلك قصيدة شعرية واصفة لها جاء منها :

يَا نَاطِلًا فِي جَمَالِي حَقِّقِ النَّظْرَا

وَ مَنِّحِ الطَّرْفَ فِي حُسْنِي الَّذِي بَعَثَا

أَنَا التُّرِّيَا الَّذِي تَأْتَا يِي أَفْتَكِرَتَا

عَلَى الْبِلَادِ فَمَا مِثْلِي التَّرْمَا يَرَى

أَفْرِخْتُ فِي قَالِبِ الْخَسْبِ الْبَيْرِجِ كَمَا

شَاءَ الْأَمِيرُ أَبُو يَغْفُوبٍ إِذْ أَمَرَا

فِي مَسْجِدِ جَامِعِ النَّاسِ أَبْدَعَهُ

مَلَكَةُ أَقَامَ يَعْوَهُ اللَّهُ مُتَنَصِّرًا

لَهُ اخْتِنَاءٌ بِرَبِّهِ اللَّهُ يُظَهِّرُهُ

يَرْجُو يَوْمَ فِي جَنَانِ الْكَلْبِ مَا أُدْحِمَا

و بالجامع الكبير منبر قديم مرصع . فريد من نوعه يعد أحد المنابر الثلاثة الموجودة في المغرب الثاني في مراكش و الثالث في فاس . و بهذا الجامع كذلك خزانة الكتب العلمية المخطوطة و بجواره مدرسة الطولي الرشيد التي كانت تأوي طلاب العلم و المعرفة و تبعث بأطرها إلى جامعة القرويين .

ثم بتارة توجد كثير من الأماكن التي تحولت إلى دور سكنية و كانت في أصلها معامل لصناعة الصابون البلدي ، هذا الصابون الذي اشتهر في المغرب كله بجودته . لم يبق منه الآن إلا اطلال الشعيير " ما يكفيني معاك حتى صابون تازة " .

و من أبراج تازة هناك في الجهة الغربية برج مستدير عال و هائل يسمى البرج الملولب أو برج سرازير و تعني الشرفيين كان يستخدم للمراقبة و الدفاع و كذا كمرصد فلكي .

و بجنوب تازة هناك تجويف محوري أنفي هائل شعير يسمى "افريواطو" كحف يحتل مكانته العاطية السياحية دون إشهار و لا رعاية من جهة ما . مكانته تفرض وجودها وطنيا و دوليا

في موقع تازة الأثري تكثر الأشياء العظام التي تؤشر على أن تازة شهدت على مر الأجيال و العصور حضارة مزدهرة .. هناك شاهد آخر هو كثرة أضرحة العلماء و الصالحاء الذين صنعوا لتازة مجدها التليد على مر العصور .. أذكر البعض و بالاسم فقط . لأن الوقت لا يسعنا لذكر تارجمهم . و فيهم الطورخ و الجغرافي و الشاعر و العالم و الفلكي و الطبيب و القاضي و الفيلسوف و الوزير و العسكري إلخ  
ففي الحقبة ما قبل الدولة الإدريسية أذكر كهلاان الأوثي و سليمان الطمطامي ، و على عهد الدولة الإدريسية .. ابن عبد الحميد إسحاق . و كثر الأوثية و داود ابن إدريس الثاني ، و ابن واضح ، و بهون و امصالة بن حبوس .

و على العهد المرابطي أذكر .. عبد الله بن ملوية و الشيخ علي أصناح و عبد السلام البرنوصي و المهدي الجزائري .

و على العهد الموحدوي أذكر : سعيد الغياتي ، و ابن حبوس ، و ابن عمران ، و ابن جلداس ، و ابن حمادة .

و على العهد المريني نذكر : الصديني و الزويلي و الترجالي و ابن العشاب و ابن البقال و ابن بري و المجاصي و إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي و أبو شعيب الجزائري و صبح جارية الجزائري الشاعرة .  
و السطحي ، و المكدوي ، و علي الجزائري صاحب زهرة الآس في بناء مدينة فاس . و ابن شجاع الرجال النموذج الذي ذكره ابن خلدون ، و ابن هيدور عالم الرياضيات تلميذ ابن البناء المرآتشي . بالطالعة و الدراسة .

و على العهد الوطاسي أذكر : ابن فاس ، و ابن يجيش الذي حارب تعافت الاستعمار الأوروبي على شواطئنا بالسيف و القلم ، و تأليفه في الجهاد شعرا و نثرا يعد متميزا إن لم أقل فريدا من نوعه في العالم العربي و الإسلامي .

ثم سيدي عزوز (مول تازة و دجاج اللوز) صاحب الرياحيات المفقودة ، ثم القلعي و الوزان و الدار و الميسوري .

و على العهد السعودي أذكر : الصباح و الغمدي و بن جابر و زنونف و السايح الغياتي .

و على العهد العلوي أذكر : اللواتي . و الداخوغي و المجاصي و الإسحافي و مصباح و العامري ، و طواش و الدهراوي و ابن فتوح و الحسيني و امديش و مسواك و البريحي و ابن الأشعب و إبراهيم الوزاني و الحجوي و ابتشيكة و بلماحي و أحمد البزور و عزيز و بلال .

كل هؤلاء، و غيرهم توفاهم الله إليه و لم يبق إلا أعمالهم الصالحة في سجل تازة الأبدى الخالد و في مآثرها  
و آثاتها و معالها .

هذه المدينة التي اختيرت كعاصمة و موقع ذات قيمة علمية و حضارية أخذت التراث المغربي على مدى حقبة التاريخية .. و شحت أكثر  
من مرة لتقديم ملف عنها إلى قسم التراث بمنظمة اليونسكو و المجلس الدولي للمعالم و المواقع

هذا و قد أسفرت اجتماعات لجنة تنسيق القوائم الدلالية للمعالم و المواقع على النتائج التي صادف عليها كل  
من ممثلي دول المغرب العربي و المنظمات و المؤسسات الدولية المختصة و كان ضمنها موقع مدينة تازة مع الجامع الكبير فهل تتبع  
أحدنا في الجهة هذا الملف و عرف أيه وصل الآن ؟

تلك أيها الأفاضل هي تازة و كما عرفتھا . و قد قال في حقها سجيده يوما المغربي حسنة الوزان و المعروف كذلك بليون الإفريقي و الذي  
عاش على العهد الوطاسي في كتابه و وصف إفريقيا قال : " تازة مدينة كبيرة لا يقل نبليها عن قوتها ...

... تحتل هذه المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث الملائمة و الحضارة .. ففيها جامع أكبر من جامع فاس و ثلاث مدارس ، و  
حمامات و فنادق كثيرة و أسواق منتظمة و سكانها الشجعان كرماء من بينهم عدد كبير من العلماء و الأخيار و الأثرياء .

و من عادة ملوك المغرب لهذا العهد أن يقطعون هذه المدينة لتأتي أبناءهم و من الواجب . و الحق يقال . أن تكون حضارة المملكة لطيب  
هوائها شتاء و صيفا و كان ملوك بني مرين يقيمون بها الصيف كله . " و قال لساد الدين ابن الخطيب في تازة : ( بلد امتناج ، و كشف  
قناع ، و محل ربح و إيناج ، و طيب طاب مائه ، و صبح هوائه . و باه شرفه و احتلاؤه ، و جلت فيه مواهب الله و آلاؤه ، عصبيره  
مثل ، و أمر الخصب به ممتلئ ، و فوائده لا تحصى يمار بها البلد الأقصى إلخ . و في كتاب : الاستبصار في عجائب الأمصار طوًف مجهول  
من العهد الموحدي يقول عن تازة : " ... و لا أعلم ببلاد المشرق و المغرب بلدا أخصب منها و لا أكثر فائدة . " .. أعتقد أنني قريبكم من  
فضاءات تازة الممتازة التاريخية و الثقافية من خلال عرضي هذا . و لا أخفيكم أنه من خلال اطلاعي و تعمقي في معرفة ما تيسر من تاريخ  
تازة الطويل العريض العميق .. توصلت إلى قناعة أننا نعيش غرباء وسط تراثنا الخالد الذي هو الأساس الحافز الفاعل بامتياز لتقدمنا ..  
هو ذخيرة تراثية ، و بصيد قوي لحضارتنا المستقبلية . و لا أخفيكم أن تراث تازة العلمي المخطوط لا زال فاعلا يستفيد منه الباحثون في  
كثير من المكتبات المغربية الخاصة و العامة . و خارج المغرب في مكتبات شهيرة عالمية أذكر منها - 1 : كتاب " اقتطاف الزهر و اجتناء  
الثمر " لعلي بن بري يوجد " بدار الكتب المصرية " بالقاهرة تحت رقم : 14.417 / ز " - 2 . كتاب المناظرة " للشيخ عبد الله بن فاس  
التازي يوجد " بالمكتبة الوطنية بباريس " تحت عدد 1461 - 3 . كتاب " رحلة ابن الطيب الصميلي " ( المرحلة التازية ) توجد بالمكتبة  
" لبيسلي " بألمانيا تحت عدد 746 - 4 . كتاب المسجد الأعظم بتازة للمؤرخ هنري طراس يوجد بخزانة باريس تحت عدد : 86050 .  
كعنتهم بتاريخ تازة و منتبج لنوها و أنشطتها أسجل بارتياح كبير تحقيق مشروعيه كتابا غاية مطلب لزمن طويل من طرف ساكنة تازة ..  
ففي السنوات الثلاث الأخيرة تعززت بنية تازة بمؤسستيه علميتين هامتين و هما : أولا : الكلية المتعددة التخصصات . ثانيا : المجلس  
العلمي المحلي . و هذا الأخير كان لي شرف تأييد و قاء تنصيبه يوم 15 ماي 2004 فكتبت محاضرة عن ذلك ، نشرتها في كتاب تحت  
عنوان : " علماء تازة و مجالسهم العلمية " ( مقاربة تاريخية ) . و منزلة هذا التأريخ انفراد تازة به و حدها في المغرب ، و هكذا تعد محاضرتي  
هذه ثاني محاضرة للمجلس العلمي المحلي بتازة

\_\_\_\_\_ نص المحاضرة التي ألقاها الكاتب و الباحث ذ.محمد العلوي الباهي ضمنه

البرنامج السنوي لأنشطة المجلس العلمي المحلي بتازة بدار الشباب يوم 17 فبراير 2007 .

<http://www.mosTaza.new.ma>